يوحنا ٥، ١-١٥

الأحد الثالث من يوحنا (المخلع)

الكلمة الحيّة والمحيية

"يا سيّد ليس لي إنسانٌ..."

حدّدت الكنيسة قراءة هذا النصّ في هذه الفترة القياميّة، لأن برْكة بيت حسدا (بيت الرحمة) مثّلتْ من البداية رمزاً لحدث المعموديّة. ولا ننسى ارتباط المعموديّة بالفصح، حيث كانت فترة الصوم الكبير تُفرز لخدمة الوعظ وكان سبت النور يوماً للمعموديّة كعبور إلى الحياة الجديدة في الفصح. ارتباط المعموديّة بعيد الفصح يعود إلى مفهوم الحياة الجديدة، إلى مفهوم الخليقة الجديدة، التي افتتحتها قيامة المسيح.

ما يتّضح من النصّ أمران. الأمر الأوّل هو الأنين البشريّ للإنسان الرازح تحت وهن الفساد. الإنسان الذي خُلِق في البدء بين الفساد وعدم الفساد، أي فاسداً بالطبيعة وغير فاسد بالنعمة، هذا الإنسان يتنهّد اليوم تحت وطأة عالم الفساد الغريب. صرخة المخلّع "يا سيّد" تمثّل تنهّد الإنسان الواقع تحت وطأة الحالة دون الطبيعيّة.

الأمر الثاني، الواضح في النصّ، هو استعراض الحلول المطروحة لرفع هذا الواقع الأليم ولإيقاف هذا التنهّد الإنسانيّ. وتظهر أمام هذا التحدّي ثلاثة أطراف، أوّلها الإنسان الآخر، ولقد أجاب المخلّع على خبرته مع هذا الطرف بأنّه "ليس لي إنسان...". وثانيها رجال الدين، الذين يفترض بهم أن يحملوا حلولاً دينيّة خلاصيّة. وهؤلاء أيضاً أظهر النصّ عدم نجاحهم. أمَّا الطرف الأخير، الذي استطاع أن يقول للمخلّع "احملْ سريرك وامضِ..." والذي صارت كلمته فعلاً وحياةً، فقد كان الله.

من جهة الإنسان، فإنَّ إمكانيّاته تزداد باطّراد، والعقل البشريّ هو الهديّة الإلهيّة الثمينة، وهو أحد مزايا الصورة الإلهيّة في الإنسان. البعض يرى أنَّ المحاولات الإنسانيّة تزداد نجاحاً في مجال معالجة الألم والحدّ من امتداد الفساد. بعض الآراء تفترض رأياً مغايراً، أنَّ الإنسان بحضارته وتمدّنه قصّر من الحدّ الوسطيّ لحياة الإنسان، وأدخل إلى حياته أمراضاً جديدة فتّاكة فرضتها اختراعاته على الطبيعة، التي وإن فسدت عند سقوط الإنسان، إلاَّ أنّها كانت بريئة من مثل هذه النتائج. ومهما يكن الأمر، فالذي يمكن أن يُفحص بدقّة أكبر وبمسؤوليّة واعية، هو أنَّ المحاولات الإنسانيّة، عندما تنجح أو تسيء، لا تلعب أكثر من دور تقصير أو إطالة المعدّل الوسطي لحياة الإنسان. عندما تنجح المحاولة الإنسانيّة في التصدي لعنصر الفساد فإنها تنجح بتأجيله فقط. عرفت البشريّة طُرقاً لمعالجة الأمراض ومواجهة الآلام الطبيعيّة وستعرف ما هو أهم، لكنّها لن تعالج البتّة مرض الشيخوخة. أضف إلى ذلك، أنَّ الكلمة البشريّة غالباً ما نسمعها من منبر المصلحة والمجد والرغبات الأنانيّة. نظرة سريعة إلى مجتمعاتنا المعقّدة اليوم، تظهر كم يكون الإنسان فيها شريكاً للآخر بكل نواحي حياته. المسكن لم يعد كما كان في الماضي منفصلاً، بل كلّ منّا هو "جارٌ" لكثيرين. وبناية اليوم تضمّ ما كانت تجمعه قرية بكاملها. في الأعمال أيضاً، لا توجد اليوم أعمال فرديّة ومهن خاصّة. أبسط الأعمال تقتضي تعاوناً بشريّاً. عالم الاختصاص والتخصُّص يفترض لإنجاز أيّ أمر تعاون أطراف عديدة. مع ذلك نلاحظ أنّه كلّما ازدادت الروابط بين الناس وصارت أكثر تعقيداً وضرورة كلّما زادت الوحشة والوحدة والفرديّة بينهم. في النهاية، تحقّ كلمة المخلّع "يا سيّدي، ليس لي إنسانٌ...". إنَّ الحضارات البشريّة، والاختراعات، والمدنيات، أمرٌ ليس ضروريّاً وحسب وإنّما رغبةٌ إلهيةٌ أيضاً، إلاَّ أنَّ كلّ ذلك لا يشكّل حلاًّ نهائيّاً بل آنياً. الكلمة الإنسانيّة أمام المسألة تبقى إنسانيّة، تحرك الموضوع، لكنّها لا تحلّ مشكلته.

من جهة الدين ورجاله، فإنَّ الأمل لأوّل وهلة يبدو متعلّقاً بهم ما دامت المدنيّات لم تلبِّ الغاية. النصّ الإنجيليّ يكشف على الفور فشل هذا الطرف حين بقيَ بشريّاً أيضاً. الدين فاشل حين ينقلب حرفاً. رجال الدين أمام الأعجوبة، وهي دليل وآية واضحة لغلبة الحياة على قوّة الفساد، أمام هذه الآية لم يكتشفوا دفق الحياة، لكن لحظوا مخالفةَ الحرف وتعدّي الناموس. لقد قلبوا الدين إلى شروحات، والدين كان في الأساس قناةً للحياة.

الكلمة الدينيّة حين تنحصر في حروف الكلمات تبقى بشريّة، لا بل خدَّاعة. لأنَّ الكلمة البشريّة المدنية فيها تعزية آنية أمام مسائل الآلام. أمَّا الكلمة الدينيّة في حالة كهذه فهي هدَّامة لأنَّها تصير فلسفة وهميّة كلاميّة فقط.

الدين ليس فلسفة تأمليّة في الحياة، الدين الحقّ هو الحياة بالذات. الدين ليس نقلَ معلومـــات أو فرضَ واجبات، الدين حلٌّ للمعاناة البشريّة. على الدين أن يكون حيَّاً أي أن يكون دفق حياة. الـــدين بخلاف ذلك يصبح فعلاً أفيوناً للشعوب. النتائج غير الدينيّة وغير الإنسانيّة للمتديّنين توضّح الحـــالات العديدة للكلمة الدينيّة حين تكون قاتلة بدل أن تكون محيية، وتفضحها حين تكون فاســـدة بـــدل أن تشفي من الفساد.

الطرفُ الثالث في هذا الحدث كان الله. لقد قال كُنْ فكان. تكلَّم فدبَّت الحياة عوض الفســـاد. كلمة الله حين تلتقي بالإنسان تبدِّله وتحوله وهذا دليل الحياة التي فيها.

كلمة الله هي شيء من عدم الفساد منذ الآن، إنّها حياة وعربون الحياة الأبديّة. كلمة الله هـــي الملكوت بالذات في بدايته. لذلك كلمة الله هدَّامة لكلّ من الطرفين الآخرين. الذين قـــاوموا المســـيح ويقاومون الإيمان دهراً، هم جماعة الملحدين وجماعةٌ جاحدةٌ من المتديّنين. هذه خلاصة التـــاريخ تجـــاه قيامة المسيح. وما ينطبق على تاريخ البشريّة والمجتمعات عامةً ينطبق أيضاً على الحياة الشخصيّة، حيث كلمة الله المحيية هي أيضاً مُميتةٌ للعالم والإنسان القديمَين. عندما تلتقي الكلمة الإلهيّة مع الإرادة الإنسانيّة تخلقان على الفور حياةً. كلمة الله، إذن، "بانية" في النهاية للإنسان الجديد والخليقة الجديدة على صورة العالم الذي من بعد قيامة المسيح.

إنَّ هذه الحركة، الناتجة عن الكلمة الإلهيّة التي تقود الإنسان في طريق الكمال الذي لا يتوقـــف، تعني بالتمام أنَّ الإنسان عندما يلاقي هذه الكلمة يوضع في حالة حركية ويحيا في تبدّل. وهذا ما نسمّيه حياة التوبة. إنَّ اللانهاية في الكمال الروحيّ تعني ديمومة حالة التوبة، واستمراريّة العبور، كلّ لحظة، من أقدم إلى أحدث، وبالتالي تكون حياةً فصحيّة دائمة.

ليس لي إنسان، ولا خلاصٌ لنا إلاَّ بإلهنا. قيامة المسيح فضحت غشَّ الأصنام، الآخر والأديان هما عنصران بشريّان؛ لا حياة لهما في ذاتهما، أمَّا الحياة فتأتي من حياة الله. الكلمة الإلهيّة تستطيع أن تبــثّ الحياة. قيامة المسيح هي عيد عربون الملكوت الذي لا وجع فيه ولا حزن ولا تنهّد، بل حياة لا تفنى.

أتريد إذن أن تبرأ؟ إنَّ الماء في البركة الجديدة، أي الكنيسة، يتحرّك دائماً. والربّ علــى البــاب واقفٌ يقرع:

"ها أنذا أجعل كلّ شيء جديداً". آميـــــن